كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم علم الاجتماع

محاضرات في مقياس التربية والتكوين في الجزائر د . تالي جمال

عنوان الماستر: علم اجتماع التربية اسم الوحدة: أساسية الرصيد: 5 المعامل: 2

المحاضرة الثانية: الخصائص التربية في المغرب الأوسط

1ـ المنطلقات والخصائص

لم يتمكن الفاتحون المسلمون من فتح المغرب العربي إلا بعد سبعة عقود من الزمن، لقوا فيها مقاومة ضروسا من قبل الأمازيغ الذين اشتهروا بصمودهم خلال قرون من الحروب ضد الرومان والوندال والبزنطيين.

ويعتبر فتح المغرب العربي من أطول الحملات في التاريخ الإسلامي مقارنة بالحملات الأخرى والتي استغرقت ثلاث سنوات لكل من مصر والأندلس. والسؤال الذي يطرح نفسه هل رفض الأمازيغ الإسلام؟

لم تكن أسلمة الجزائر سهلة للفاتحين المسلمين بدليل المحاولات المتكررة لعقبة بن نافع الفهري، والتي لقي فيها مصرعه بمدينة سيدي عقبة ببسكرة، وكان الأمازيغ قبل الإسلام هم الفئة الأغلب من سكان المغرب العربي والبقية من الأفارقة وبقايا البزنطيين.

وعلى الرغم من المقاومة الشرسة التي واجهت الفاتحين خاصة من قبل كسيلة والكاهنة، إلا أن هناك عوامل ساعدت على نشر الإسلام من بينها:

- اعترى المجتمع الامازيغي نوع من الفوضى بسبب الفوارق بين أهل البادية وأهل الحضر إضافة إلى الانقسامات الدينية بين الطوائف المسيحية.

- . كما نجد أن قبائل البادية يشتركون في عدة خصائص مع العرب كالتقسيمات القبلية وأسلوب العيش المعتمد على الرعي وحب الغزو، حيث ساهموا بحماسة في نشر الإسلام.

وبدخول الإسلام الجزائر باعتباره رسالة دينية وعلمية وحضارية، بنيت الحضارة العربية الإسلامية في شمال إفريقيا وانتشرت الثقافة بانتشار وتوسع رقعة العالم الإسلامي، وتجاوبت الثقافة المحلية الامازيغية مع الثقافة العربية الإسلامية الو افدة مع الفاتحين.

ولقد ساهم البربر في بناء صرح المجتمع الجديد، هذا المجتمع الناشئ في شمال إفريقيا، وقد ارتبط الوعي الحضاري فيه بالوعي التربوي المرتبط بالرسالة المحمدية وقيمها السمحاء، التي كان أساسها القرآن الكريم وسنة نبيه المصطفى.

وتجدر الإشارة إلى أنّه بعد الحروب والمواجهات بين الأمازيغ والفاتحين والتي تعد حالة طبيعية، حال كل الشعوب التي تعرضت للاستعمار بأنواعه، تعرف البربر على الإسلام وتمسكوا به دينا وثقافة وتربية وحضارة ولغة وعلوما.

يقول أحمد توفيق المدني في هذا الصدد:" وقد كانت الدنيا تنتظر نورا جديدا، فجاءها النور من مكة أم القرى، وكان المغرب على الأخص ينتظر نظاما جديدا، قو ّ امه العدل والحرية والتساوي، فجاء النظام الجديد يضمن له سعادة الدنيا ونعيم الآخرة، يقول قرآنه:إن ّ أكرمكم عند الله أتقاكم. ويقول

رسوله: الناس سواسية، ويقول خليفته: كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا[i]."

وهو ما جعل مدنا ومؤسسات دينية وعلمية وثقافية وتربوية تظهر في هذا المجتمع الناشئ في شمال إفريقيا مستمدة روحها من المدرسة النبوية قولا وفعلا وتقريرا، وانتشرت عبر المجال الجغرافي المترامي الأطراف للدولة الإسلامية وشكلت منارات للعلم والمعرفة.

ونذكر منها القيروان بالمغرب الأدنى وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بالمغرب الأقصى، أما المغرب الأوسط فظهرت فيه قلعة بني حماد في المسيلة وبجاية ، ومدينة تيهرت في عهد الرستميين، والجزائر في عهد الموحدين، ومدينة تلمسان في عهد بني زيان.

ويذكر الأستاذ علي ديدونة مدنا أخرى مهمة كمدينة مازونة وملیانة وورجلان وتنس وبسكرة وغيرها، شكلت هي الأخرى منارات للعلم والمعرفة، بحيث كان يقصدها العلماء وكبار المدرسين والمؤدبين وطلبة العلم وحتى الأجانب من الأوربيين، الذين كانوا يقصدون مدينة بجاية للنهل من علوم الحضارة الإسلامية والمعارف بأصنافها ويترجمون للغاتهم لمواصلة المشوار العلمي والبحث والتنقيب والنقل والإبداع بين أجيالهم وشعوبهم.[ii]

2ـأهمية التربية في الحضارة الإسلامية:

يتضمن التعليم في التنزيل القرآني الجوانب المعرفية والمهارات والاتجاهات التي يحتاجها الإنسان في حياته والضرورية لإصلاحه، كما أن

العلم في الإسلام حق للرجل كما المرأة، لقد أتى الإسلام برؤية جديدة وشاملة للحياة، فأقر الوحدانية مقابل التعددية الوثنية، كما أكد التوجه الكوني الإنساني في مقابل عصبية قبلية ميّزت نظم اجتماعية وتربوية سابقة.

وهكذا فقد كان للإسلام رؤية تربوية كاملة لمجتمع كان في أمس الحاجة للتغيير، فكانت التربية أداة لتغيير المجتمع العربي ومن ثم الأمة الإسلامية، فمؤسسات التعليم كانت وليدة ظروف زمنية ومكانية، وبهدف تحقيق أغراض أملتها احتياجات الثقافة ونشر تعاليم الإسلام. ولقد كان التعليم من الواجبات الدينية وكان الزاما اجتماعيا.

3.المؤسسات التربوية في المغرب الاوسط:

برزت المؤسسات التربوية الدينية وأساسها المسجد أو الجامع الذي كان مهيمنا على جميع مناحي الحياة، يعلم ويربي ويرعى شؤون المسلمين، ويعمل على نشر مبادئ الدين وتحفيظ القرآن الكريم، وتوعية الناس وتثقيفهم، وكان النظام التربوي في العالم الإسلامي نظاما **لا مركزيا** في أصله، ثم مع تطور المجتمع برزت الحاجة إلى مؤسسات أخرى تتكامل في دورها مع المسجد، فظهر الكتاب والمدرسة ومجالس العلماء والشريعة وهي خيمة يستعملها البدو الرحل للتدريس، ودور العلم ودور الحكمة.

أ.المساجد:

قام كل من المسجد والجامع بدور تعليمي هام في تاريخ الحضارة والمجتمع الإسلامي، وقد يفرق البعض بين كل من المسجد والجامع من حيث الوظيفة، الا أن الفرق بينهما من الناحية التربوية قد لا يكون هاما، وهكذا فان المسجد من أقدم المؤسسات التربوية في الإسلام.

لقد بدأ المسجد مهامه التربوية مباشرة بعد خروج الدعوة الإسلامية إلى مرحلة العلانية في المدينة المنورة، حيث احتل المسجد دورا رئيسيا في الحياة الروحية والسياسية والعقلية وانعكس على مستوى الدولة والأمة والمجتمع الإسلامي، كما استخدم المسجد كمكان للمداولة في الشؤون الخاصة والعامة للمسلمين.

فوظيفتها الأساسية قيام المسلمين بأداء الصلوات فيها، وتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم الفروض الدينية وبعض العلوم الإسلامية، وتعريف شؤون الناس، وعلاج مشاكلهم وقضاياهم اليومية، وهي ثلاث أنواع:[iii]

- نوع مما أسسه الحكام، كالخلفاء والأمراء والملوك، كجزء من عملهم الوظيفي في خدمة المجتمعات الإسلامية وتسيير سبل آداء شعائرهم الدينية، وربما لكسب عطف الرعية، أو من أجل الشهرة.
- ونوع مما أسسه كبار الأثرياء للتقرب إلى الله واستمالة بعض الفئات الاجتماعية وشيوخ الدين، ولكسب الشهرة، وأعداد هذا النوع كثيرة في الجزائر.

- ونوع ثالث مما أسسته الهيئات العلمية والجمعيات الخيرية الدينية والاجتماعية، كتكملة لعمل الولاة وكبار الأثرياء وشيوخ الدين، وهي كثيرة.

ب.المدارس العلمية:

وظيفتها تعليم مختلف العلوم الدينية والدنيوية، وظهرت بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية واتصل المسلمون بحضارات وشعوب أخرى غير إسلامية، واحتكوا بها، ودعت الحاجة إلى اقتباس علومها ومعارفها والاستفادة منها، ولم يكن باستطاعة المسجد وحده ان يقوم بهذا الدور، فاهتم المسلمون بإنشاء هذه المدارس وتعميمها، ومن ضمنها المدرسة النظامية ببغداد، والظاهرية بدمشق والبرقوقية والغورية بمصر، والحفصية والسليمانية والتوفيقية والمرادية بتونس، والتاشفينية ببجاية، والامامية واليعقوبية بتلمسان.[iv]

وجرت العادة أن تؤسس مثل هذه المدارس بجوار المساجد، نظرا للصلة الوثيقة بين الدين والعلم، غير انه ليس شرطا، لان كل مدرسة تحتوي داخلها بيتا للصلاة.

د.الكتاتيب القرآنية:

يعتبر الكتاب من أقدم أماكن التعليم في الأمة الإسلامية المخصصة للتعليم فقط، علما أن المسجد أقدم من الكتاب؛ فهو يقوم بوظيفة أساسية ومباشرة، وقد خصص في كامل الأمة الإسلامية لتعليم أطفال المسلمين.

ووظيفته تحفيظ القرآن للأطفال وترتيله لهم، وقد دعت الحاجة إلى تأسيسه من اجل تجنيب المساجد فوضى الأطفال والانشغال بتدريسهم، والاحتفاظ بنقاوتها وطهارتها ووقارها، وهذه الكتاتيب في غالب الأحيان بيوت منفردة، وأحيانا مجمعات من البيوت مختلفة الأحجام والأشكال، والأغلبية هي من تأسيس حفظة القرآن الكريم للاسترزاق وطلبا للقمة العيش، وبدأت في الظهور منذ صدر الإسلام بالمدينة المنورة، ثم انتشرت في سائر بلاد المسلمين.[v]

هـ. الزوايا:

عبارة عن مجمعات من البيوت والمنازل مختلفة الأشكال والأحجام، تحتوي على بيوت للصلاة كمساجد، وغرف لتحفيظ القرآن وتعليم العلوم التي اشتهرت بها الحضارة لعربية الإسلامية، وأخرى سكنات للطلبة وطهي الطعام وتخزين المواد الغذائية والعلف وا يواء الحيوانات التي تستعمل في أعمال الزاوية.[vi]

ومؤسسو هذه الزوايا رجال دين ومتصوفون متزهدون، بدأت حركتهم تظهر في المشرق الإسلامي منذ القرن الثاني للهجرة، على يد رابعة

العدوية، ثم أبي يزيد طيفور البسطامي الفارسي، وأبي القاسم الجنيد العراقي، والحلاج في القرن الرابع الهجري، وأبي حامد الغزالي في القرن الخامس، ومحي الدين ابن عربي الأندلسي في القرن السابع الهجري.

لعبت الزوايا الدينية بمختلف أشكالها وأنواعها أدوارا كبيرة في الحياة التربوية الدينية والثقافية والاجتماعية، بل وحتى السياسية، بالجزائر وكل بلدان المغرب.

و. المدرسة:

نشأت المدرسة متأخرة نسبيا عن بقية المؤسسات الاخرى، فلم تعرف المدرسة في زمن الصحابة أو التابعين، وقد أقيمت أول مؤسسة تحت هذه التسمية في المجتمع الاسلامي في نيسابور من أعمال فارس، حيث بنيت المدرسة البيهقية، والتي بناها نصر سكتيكين.[1]

[1] محمد صالح الهرماسي: مقاربة في اشكالية الهوية، المغرب العربي المعاصر، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان،2001، ص 93

وفي بغداد بنى عبد الملك السلجوتي المدرسة النظامية عام 457 هـ وقد خصصت لدراسة مذهب أهل السنة، وفي مصر لم تعرف المدارس الا بعد انتهاء عهد الفاطميين وقيام الدولة الايوبيةثم انتشرت بعد ذلك، أما في بلاد الاندلس فلم تعرف المدارس.

وقد نشأت المدارس نتيجة للحاجة الى مكان ما يمكن فيه الجدال بصوت قد يكون مرتفعا وقد تنافى مع جلال ووقار المسجد، وان كان الشيء الاكثر ترددا في مختلف المصادر العلمية يتعلق بالهدف السياسي والمتعلق بالرد على المذهب الشيعي في كل من مصر والشام.[2]

وقد كانت الدولة تقدم اجور المعلمين بواسطة اوقاف توقفها لها وهي تتكفل بالطلبة وكذلك انشائها، وقد عملت على تفريغ الطلبة والاساتذة وسنّت لها تقاليد للادارة والتدريس.

4.المناهج والمحتويات:

انطلقت المناهج من العلوم الشرعية واللغوية لتغوص في أعماق العلوم العقلية على اختلاف التخصصات والمجالات، فهي تستمد روحها من القرآن وعلومه ومن الحديث النبوي، فتم الإبداع وبرزت العبقريات، ويشهد المستشرقون من أمثال غوستاف لوبون والألمانية سيغريد هنكة على المستوى الراقي الذي وصلت إليه الحضارة العربية الإسلامية في القرون

[2] المرجع السابق، ص 93

الوسطى، حيث ظلت كتب علماء المسلمين المصدر الوحيد تقريبا للتدريس في جامعات أوروبا خلال كل هذه القرون الوسطى.

وتنوعت العلوم والمعارف التي تدرس في مختلف المؤسسات التربوية، وعموما يمكن تصنيفها الى ثلاث أصناف:

أولا. العلوم الدينية، مثل تحفيظ القرآن وشرحه وتفسير الحديث، وتعليم الفقه والتوحيد، والمنطق والأصول.

ثانيا. علوم اللغة والأدب: كالنحو والصرف والبلاغة والعروض والقوافي وقواعد الإنشاء، باعتبارها اداة ووسيلة لإتقان العلوم الدينية.

ثالثا. العلوم الطبيعية والتجريبية كالفلك والحساب والطب والصيدلة والكيمياء وغيرها.

5.تمويل التعليم:

اعتمد تمويل التعليم في المجتمع الإسلامي على أموال الزكاة والغنائم والوقف والصدقات الجارية والجزية وتبرعات المحسنين والأعيان والأمراء، حيث ساد الوعي التربوي وأصبحت قضية التربية والتعليم مسؤولية الجميع، وطلب العلم ليس حقا فقط بل واجب وفريضة على كل مسلم ومسلمة.

لقد ازدهر الرصيد الحضاري والثقافي المتميز في ظل الثقافة والتربية الإسلامية، مما جعل من السلف خير معلم للبشرية جمعاء، تلك هي ملامح التجربة التربوية للأمة في صدر الإسلام.